تمنطيط وحضورها في الرواية الجزائرية: سيميائية المشهد في رواية (أعوذ بالله) للسعيد بو طاجين أنموذجا

Tmentit and its presence in the Algerian novel: the semiotics of the scene in the novel (aaoudo bi Allah) by Said BouTajine as an example

د. عبد الله كروم*

جامعة أحمد درايعية، أدرار

مخبر فضاء الصحراء في مدونة السرد الجزائري

kerroum197401@gmail,com

تاريخ الاستلام: .2023/01/08. تاريخ القبول: 2023/04/28 النشر:2023/05/31

ملخص:

حضر اسم تمنطيط في الرواية الجزائرية بما تمثله من زخم تاريخي واستراتيجي لكونها ملتقى القوافل التجارية من جهة، ولكونها كانت حاضرة علمية من جهة أخرى، وبوصفها مدينة عاشت فيها العديد من الأعراق والأجناس والأديان، تعرضت لهزة بعدما شهدت تدافعا وصداما بين الإمام المغيلي واليهود، هذه القضية شكلت مادة دسمة لعديد الروائيين(السايح، ضيف الله، الزاوي) لمناقشة معضلة شائكة تتعلق بالأنا والغيرية، فيما اختار الروائي السعيد بوطاجين الاستثمار في الجوانب الجغرافية والإناسية بعيدا عن التاريخ وأفخاخه. أحاول في هذا البحث الحديث عن الحضور الرمزي لمدينة تمنطيط في الرواية الجزائرية من خلال رواية مهمة في الأدب الجزائري المعاصر، وهي رواية (أعوذ بالله) للروائي السعيد بوطاجين، التي أبرز فيها العديد من المشاهد السيميائية، تشكل البنية الاجتماعية والثقافية والجغرافية لمنطقة توات وعاصمتها تمنطيطوفي مقدمتها القصبة الطينية، والمخطوطات، والفقارة، والواحة، وفضاء الصحراء.

الكلمات المفتاحية: تمنطيط، الرواية الجزائرية، السيمياء، الحضور الرمزي، البنية الثقافية، الفضاء الصحراوي

Abstract :

The name Tamntit was present in the Algerian novel, with what it represented of a historical and strategic momentum, for being the meeting place for commercial caravans on the one side, and for being a scientific metropolis on the other side, and as a city in which many races, and religions lived, it was subjected to a shock after witnessing a stampede and clash between Imam al-Maghili and the Jews, this issueIt constituted background for many novelists (Al-Sayeh, Daif Allah, Al-Zawi) to discuss a thorny dilemma related to the ego and otherness, while the novelist Al-SaeedBoutagine chose to invest in the geographical and human aspects away from history and its traps. In this research, I try to talk about the symbolic presence of the city of Tamntit in the Algerian novel through an important novel in contemporary Algerian literature, which is the novel (aaoudo bi allah) by the novelist Said Boutadjine, in which he highlighted many semiotic scenes that constitute the social, cultural and geographical structure of the Touat region and its capital, Tamtit.In the forefront of them are the clay kasbah, the manuscripts, the fogara, the oasis, and the desert space.

KeyWords: Tmentit, Algerian novel, semiotics, symbolic presence, cultural structure, desert space.

*د. عبد الله كروم

المقدمة:

تمنطيط هي واسطة توات وعاصمتها التاريخية وقبلتها التي شدت إليها الرحال قديما وحديثا، وعرفت بزخمها الحضاري وتنوعها الثقافي والديني واللغوي، وقد شهدت عدة حضارات وسكنتها عدة أعراق وقبائل من عهد الفراعنة، إلى اليهود، ثم المسيحيين وصولا إلى العرب والمسلمين، كما أن تراثها المادي (فقارة هنو، الصخور، القصبات، المخطوطات، الواحة، السبخة، الأسواق، الزوايا والمساجد، منازل القضاة..) يمنحها القيمة المضافة عبر الزمن.

تتوفر تمنطيط على علامات رئيسة بوأتها الصدارة واهتمامات الباحثين والأدباء بها، بالنظر لموقعها الجغرافي ودورها التاريخي منذ غابر الأزمان، فقد كانت مركزا للأنشطة الثقافية والعلمية والتبادل التجاري، ومحجا لفض خصومات المتنازعين في أمور الفلاحة والغراسة والعقارات والإرث عند القضاة المعينين من قبل السلطات التي كانت تتحكم في إقليم توات.

وكانت الطرق الصحراوية التي تتفرع من تمنطيط تتجمع في اتجاهين، شمالي وجنوبي ، وكان الاتجاه الأول يربط بين توات، وأسواق شمال المغرب العربي، ويتشكل من ثلاث طرق رئيسية، أولها شمالي شرقي تسلكه القوافل المتجهة إلى المنيعة، وغرداية، والشرق الجزائري، وكذلك إلى، غدامس، و طرابلس، و جنوب تونس، و بالعكس.

والثّاني وسط شمال يخترق العرق الغربي الكبير حتّى يصل بحرى واد الناموس، وتستعمله قوافل عين الصفراء، ومشرية، وأفلو، وسعيدة، والوسط الجزائري. والطريق الثّالث، وهو الشمال الغربي، وكانت تتبع بحرى وادي الساورة، وتسلكها القوافل المتجهة إلى الغرب الجزائري، وأسواق سجلماسة، وتافيلالت، ومراكش، وفاس بالمغرب (فرج، 1977، صفحة 78).

أمّا الإتجاه الثّاني فكان يربط تمنطيط وتوات بأسواق السودان الغربي، وتسلكه القوافل التّجارية باتجاه مدينة تمبكتو عن طريق المبروك، وأروان، وكانت هذه الطريق أكثر أماناً.و لم تقتصر القوافل التّواتية على التّجارة، بل كانت هناك قوافل الحجاج التي يشترّك فيها عدد كبير من التّواتيين وجيرانهم، وكانت قافلة الحجاج تمر عبر تنمنطيط وقصور توات لتسلك الطريق الشمالي الشرقي التي تمر بمدينة غات، وعندما تصل إلى مدينةمرزوق تمكث القافلة لمدة خمسة وعشرين يوماً، يبيع أفرادها ويشترون ما يحتاجون إليه من أسواقها، ثم تستأنف القافلة سيرها نحو فوزان، ومنها تتجه إلى مصر لتبحر إلى الأراضي الحجازية (فرج، 1977، صفحة 81).

1.تمنطيط بين فتنة التاريخ وسحر الجغرافيا: أولا:

يرجح أن اسم تمنطيط غير عربي، بل هو أمازيغي زناتي، ويعني حاجب العين (بكري، 2010، صفحة 109). وهي تبعد عن ولاية أدرار بحوالي 12كلم، وهي عبارة عن مجموعة قصور أو قصبات في السابق، تحيط بها واحات النخل الخضراء، على شكل حاجب العين، ويبدو أن الاسم اشتق من هذه الشكل للواحات المسقية بماء فقاراتها الكبيرة تتقدمها فقارة هنو الأسطورية، ووقد تفردت في مقياسها وطريقة توزيعها للماء حتى أنها لا تحسب

بوسيلة الحلافة، بل توزع عن طريق المنازل (البوداوي، ..، صفحة 78)، كما تحيط بتمنطيط من جهة الشمال سبخة عادة ما تنضح مياها مالحة، ويستخرج منها صفائح الملح، ولعله من النقاط التي تمنحها الأدوار الاستراتيجية خصوصا في زمن ازدهار تجارة الملح. كما أن موقعها في قلب إقليم توات يمنحها الموقع الجيواستراتيجي للربط بين مناطقها الثلاث(تجورارين، تيديكلت، توات الوسطى) مما يسهل التواصل الاجتماعي وتسهيل حركة التنقل التجارة والنشاط الاقتصادي.

ويحدثنا التاريخ أم مدينة تمنطيط احتضنت العديد من العلماء، كما نشط بها المهتمون بالفكر والثقافة الذين أطروا حركتها الثقافية ونهضتها الحضارية ومركزها العلمي، وتعتبر الاسرة البكرية الأمرينية إحدى أكبر الأسر العلمية الوافدة للمنطقة وتمنطيط، والتي أسهمت في نشر الحركة العلمية والأدبية والإصلاح من بوابة القضاء الشرعي، وإليهم رجعت الفتوى وأمور القضاء، ولعل أول النازلين من هذه السلالة العلمية بتمنطيط هو الشيخ عمر بن محمد بن عمر البازي(872هـ)، وتلته سلسلة من العلماء الذين تصدروا للفتيا والقضاء وتركوا بها مآثر وذكرا حسنا (بكري، 2010، صفحة 109).

لقد واصل الأمرينيون المسيرة العلمية بتمنطيط، واسسوا زاوية علمية عامرة لاتزال مستمرة حتى اليوم، وهم يتوارثون المرجعية العلمية والإصلاح بين الناس في القضاء أبا عن جد، ومن الأعلام البارزين في الأسرة البكرية والذي ترك بصمات واضحة في توات حتى لقب (عالم توات)، الشيخ سيدي عبدالكريم بن أمحمد بن أبي محمد التواتي الأمريني التمنطيطي(1042هـ)، كما برز منهم القاضي الشهير عبدالكريم بن البكري بن عبدالكريم(1174هـ)، والشاعر الموهوب سيد البكري بن عبدالرحمن، والفقيه العالم سيدي أحمد ديدي(1951م) (الصديق، 2003، صفحة، 81).

لم تكن العائلة البكرية وحدها تحتكر الفعل الثقافي بتمنطيط وإن كانت هي ركيزتها، بل ينضاف إليها جملة من المشايخ الأعلام الذين اسهموا في نهضتها ومركزها الريادي بتوات، من أمثال الشيخ سيدي أمحمد بن احمد البدوي بن المحضي(ت1161هـ)، والشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالكريم الحاجب، وقد عاش خلال النصف الأول من القرن الثالث عشرة للهجرة (الصديق، 2003، صفحة 81).

وفي القرنين الثامن والتاسع الهجريين ازدهرت الحركة العلمية بها، بالنظر لاستقرار بعض الفقهاء، وزيارة أو تواصل العديد من الأعلام بها، فقد حل بها الشيخ يحي بن يدير، والإمام سيدي عبدالله العصنوني وأخيه سيدي سالم، والإمام المغيلي(ت909هـ)، وبين هذا الأخير والأول من العصاصنة حدثت أكبر نازلة عرفتها توات وتنمطيط، ألا وهي نازلة يهود توات، وقد استكتب العصنوني والإمام المغيلي حول خلافهما على وجوب هدم كنائس اليهود من عدمها علماء الأمصار، وكانت حادثة قوية ومثيرة لأنها تتعلق بمكون اقتصادي فاعل ومؤثر، ويحمل صفة الذمي المعاهد، وهو الآخر المختلف بدينه عن الأنا، غير أن الخلاف اشتد وتوسع، وجاءت الردود من مختلف الأنحاء تحمل الكثيرمن وجهات النظر المؤيدة لأحد الطرفين، مما زاد الأمر تعقيدا،وهذه الحادثة مدونة في سفر الونشريسي الشهير ب(المعرب)، وعرض فيه جميع الآراء الموافقة والمخالفة للإمام الذي في النهاية حرك جيشه

لهدم الكنائس، واستطاع من خلالها إجلاء يهود توات منها، وهذه الحادثة شكلت مادة دسمة للكتاب والروائيين لاستدعائها وتوظيفها في إبداعاتهم حسب السياقات المختلفة.

2.حضور تمنطيط في الرواية الجزائرية

وظف العديد من الروائيين الجزائريين مدينة تنمطيط في سرودهم ولعا بتاريخها الثقافي وزخمها المعماري واستثمارا في أبعادهم التوتر وابعاد حادثة نازلة توات، ولكن يبدو أن الكثير منهم استثمر في هذه الحادثة التاريخية وفق رؤية تمتح من معين واحد،وهي محاولة إدانة الإمام المغيلي في حربه على اليهود(السايح، الزاوي، ضيف الله)، ونجد هناك من وظف في تراثها المادي والجغرافيا إلى حد ما (بوطاجين، عيشة بوية)، مما يجعل الدارس يتساءل عن فحوى التوظيف لأجل الإدانة، وهذا قد يفهم اليوم في سياقات الترويج للخطاب السردي المظهر للتسامح في أحسن الأحوال، أو يخبئ بهارج الشهرة ومدخلاتها لدى آخرين.

قد يكون الروائي الحبيب السائح أول من وظف تمنطيط في الرواية الجزائرية، وذلك في روايته (تلك المحبة)، حيث ذكر فتنة جلاء يهود توات من تمنطيط من طرف الإمام المغيلي الذي يسميه (محمد التلمساني)، مكتفيا ببعض الإشارات المدينة لفعله، ومتحسرا على قتلهم وإبادتهم كما يرى، لكنه استثمر من جهة أخرى جماليا في تمنطيط بالرجوع إلى مخطوط باب حيدة ((البسيط في أخبار تمنطيط)) والواحة وعمرانها وبعض شخصياتها وأحداثها التاريخية.

ونجد الروائي عبد القادر ضيف يسلك نفس النهج وبضرب من الحماسة الزائدة والإيغال في استصحاب الحادثة وربطها بكل تاريخ وجغرافيا تمنطيط، ورغم أنه ذكر بعض التراث المادي واللامادي الموجود في تمنطيط مثل الفقارة والقصبة والطين وأغاني طبل الشلالي، لكنه كان يستحضر دائما في سرده الحضور اليهودي بها، لدرجة أن اعتبر كل تاريخ أدرار قد صار ممسوخا بسبب دماء اليهود، فيقول" ليت طيفك لا يتوالد في ذاكرتي كما وجه أدرار المطلي بندوب تاريخها الممسوخ بدم اليهود" (ضيف الله، ..، صفحة 39)، ويبدو أن ضيف الله في روايته هذه واقع تحت تأثير هاجس الربط بين تمنطيط كمدينة عريقة ومستبحرة في العمران (حسب ابن خلدون) منذ غابرالأزمان ووجود اليهود المرحلي فيها.

ونلمسه أحيانا يربط بين التراث المادي في تمنطيط وتوات كالفقارة والبنايات وتأثير اليهود فيها،واختزل كل مجد تمنطيط في بصمات اليهود فيها، ذلك المجد الذي أضاعه حسبه الإمام المغيلي، فيقول: " اندهشت وأنا أرمي خطواتي عابرا تلك الأزقة الضيقة لقصبة تمنطيط حيث ارتسمت في وجهي أصابع اليهود البهية التي بنت مجدهم المنسي الذي تركوه مرغمين بسيف التلمساني وجيشه" (ضيف الله، ..، صفحة 126).

الكثير من العلامات الأخرى التي وقفها عندها ضيف الله ووظفها في روايته (تانزروفت) تحيل على تراثها المادي والجغرافي مثل السبخة، والطين، والأزقة، والقصور الطينية، وواحة النخل...غير أنه في هذه الرواية لم يستطع الفكاك من تأثيرين استبدا به، ومثلا زاوية النظر لرؤيته وتمفصلات سرده، هما: رواية تلك المحبة للروائي الحبيب السائح، وقضية نازلة اليهود بتمنطيط مع الإمام المغيلي.

أما الزاوي فقد ذكرها حتى في عتبة العنوان في روايته (آخر يهودي بتمنطيط)،وفي هذا الرواية لا يوظف فيها الجغرافيا على زخمها وتنوعها كما فعل السايح وضيف الله، لكنه استحضر جزءا من تاريخا ولاسيما مسألة الوجود اليهودي بها وثورة الإمام المغيلي عليهم، والذي جعله معذب اليهود حسب ما نسبه لمخطوط يهودي قديم تناقله المطردون من توات نحو غرداية وبلدان الساحل، وهم الذين كانوا راغبين في البقاء في تمنطيط وينقل المخطوط اليهودي: "جزء كبير من عائلتنا لم يريدوا مغادرة تمنطيط" (الزاوي،/ صفحة 59) ، ويسلك الزاوي مسلك الإدانة لفعل الإمام المغيلي ويصفه بالراديكالي والعنيف والفقيه المتشدد.

يركز الزاوي في رواية (آخر يهودي بتمنطيط) على موضوع التعايش مظهرا كما هو جلي في مشروعه ورؤيته استكمال صورة المثقف المتنور الذي يحارب التعصب والتطرف والعنف محاولا تمرير دموية الأنا دون معرفة تاريخية بالنازلة وسياقاتها الاجتماعية والثقافية والمنظومة الفقهية السائدة يومذاك.

ومن الروائيين الذين ذكروا تمنطيط في إبداعاتهم الروائية عيشة بويبة في روايتها الجديدة (رمال متحركة)، حيث تشير إلى تمنطيط عندما تتناول مسألة نشأة الفقارة بتوات، حيث تنسبها إلى قبائل زناتة الأمازيغية التي استوطنت المنطقة في القرن الرابع الهجري، وتستحضر فقارة هنو الأسطورية وتجعلها الأولى بقصر تمنطيط، في سياق حديثها عن أنظمة سقي الفقارة وآليات اشتغالها.

3.سيميائية المشهد في رواية (أعوذ بالله)

إن النص الروائي مثل كل الأشكال التعبيرية وبمختلف تمفصلاته ومستويات تمظهراته، ينتج علامات مبعثرة داخل البنيات النسقية الرحبة والمستندة على فعل الاجتهاد في التخييل والقراءة والتأويل والتفسير غير المحدد بزمان أو مكان، أو حتى بقارئ يتغياه بعينه أثناء الكتابة (حليفي، 2015م، صفحة 7) ، ليحقق به مقصدية ما تفك شفرة بعيدة المنال.

وفي هذا السياق تستخلص المفاهيم والتأويلات المختلفة للكشف والإدراك وتتبع التيارات الخفية ووالتوترات المترابطة في ثنايا الخطاب، دون أن يستطيع الروائي والناقد على فك الشفرة ما بين العتمة والنور، وبالتالي الوصول إلى الاستيعاب التام لشبكة العلامات التي تحقق هويات متعددة ومختلفة في النصوص الروائية.

ويحقق المكان هوية رصينة في الرواية، حيث لم يعد فضاء تجري فوقه الأحداث، بل تجاوز تلك الصفة الهندسية، ليصير تعبيرا عن رؤى وأفكار، كما أنه صار عنصرا مهما يزاحم بقية العناصر، وقد اكتسب ابعادا ثقافية وفلسفية بفضل تفاعله مع الإنسان، حيث استلهم كل واحد من الآخر، ومثل بذلك المكان تاريخ الإنسان وذاكرته الزاخرة باهتماماته وأسراره ومواقفه ومكونات شخصيته، وأسهم في نمو الشخصية داخل العمل الإبداعي.

يتعامل الروائي السعيد بوطاجين مع المكان تعاملا سيميائيا فيوظفه بوعي فني وإدراك لأبعاده ودلالاته، معتمدا في معظم الأحيان على المكان الشخصية التي تقوم بدور البطولة، ومع تضافر السرد والوصف معا في تقديم

المكان ورسم محدداته، وأن المكان في نظر بشقيه المغلق والمفتوح يمارس في نظره الحصار للإنسان ويجعله يعاني عذبات القهر والنسيان (حسيبة، 2008، صفحة 53).

في رواية (أعوذ بالله) التي خصص الروائي السعيد بوطاجين جزءا منها لأدرار عامة، ولتمنطيط خاصة، لا يتعامل مع المكان الواقعي ويمنحه اسما مطابقا له كما في وجوده الواقعي، ليجعل الأماكن تعبر عن الاضطهاد الذي يتعرض له ال|إنسان في كل مكان ، ويكشف بعض الجوانب الفكرية والنفسية للشخصية من خلال وصف المكان معتمدا على تيار الوعي في تصويره للمكان.

يستند المشهد المكاني في رواية (أعوذ بالله) على بؤرتين اثنتين هما: الفضاء المغلق، والفضاء المفتوح.

1.3–الفضاء المفتوح

أ.**1**. **الصحراء**: يبرز بوطاجين الصحراء بوصفها عذبات إنسان وقهرا ومعاناة وإحساسا بأهلها، وليست مجرد واجهات للزينة وصورا بريدية يرسلها السياح بمشاعر سرعان ما تتساقط بعد العودة لديارهم ويبقى الصحراوي يعاني الانتظار" مد نهاية العالم الذي يعلقه السياح في البطاقات البريدية والمصورات البلهاء، يفعلون ذلك لأنهم بعيدون عنه، لأنهم سيرجعون بعد أيام إلى عواصمهم تاركين البدو وحدهم مرابطين في المكان لا شريك لهم، يجلسون أمام الدور الطينية وينتظرون..وينتظرون" (بوطاجين، 2016م، صفحة 38).

وحقيقة الصحراء في نظر الكاتب أنها ليست مكانا يعاني الحرمان والبؤس والبعد والانتظار وإن كان ذلك ظاهرها، لكن الصحراء الحقيقية هي في الأفكار والممارسات غير الحضارية، فيقول " بعد لأي ستكتشف أن الصحراء في الرأس وليست في المساحة" (بوطاجين، 2016م، صفحة 44).

ب.**1**. **العين**: يحدد الكاتب سبب مجيئه للصحراء وتمنطيط، التي يسميها العين أنه جاء ليبحث عن الحقيقة المدفونة في الرمل، وبطون المخطوطات، وعند ناس العين الذين يتميزون بالملاحظة والقياس، والتمسك بالعادات والتقاليد والمحافظة على التراث، فيقول" من فم لأذن. الناس في العين يهتمون بماضيهم، يتعلمون بالتجربة أيضا، بالملاحظة والقياس، يقولون من لا ماضي له لا مستقبل له" (بوطاجين، 2016م، صفحة 27) .

هاته العين التي يقول إنه جاءها مع جماعته بحثا للحقيقة " جئت إلى العين بحثا عن الحقيقة، الجماعة أيضا، لسنا سياحا" (بوطاجين، 2016م، صفحة 46).

والعين هي الفقارة . وفي تمنطيط توجد فقارة كبيرة جدا وضاربة في القدم وهي التي بفضلها بنيت القرية واخضرت الواحة واستمر الإنسان على أديمها، فكانت شاهدة على تاريخ تمنطيط وتحولاتها، ولذلك جاء ليعرف الكاتب منها الحقيقة، ولم يأت سائحا.

ج.**1**. **الرمل**: يبدو بوطاجين عارفا بعلامة الرمل وسلطته القاهرة في الصحراء وحوالي العين ولذلك فإنه يسلم له على لسان أبطاله القادمين من منطقة الساحل أو من يسميهم الأشكونيين، ويشبهه بالبحر في

جبروته وغدره وتغوله، فيقول " الرمل وحش وملاك، يجب التسليم عليه والدعاء له بالخير وطلب المغفرة منه إنه كالبحر تماما، بهي، لكنه لا يحب الصغار والسطحيين والذين لا يقدّرونه حقّ قدره" (بوطاجين، 2016م، صفحة 20).

د.1. الشمس: شمس الصحراء وتمنطيط لاهبة ويستثمر الروائي ذلك في صبر وتصبر أهل الصحراء؛ ولذلك استدرج البطل (هدى) وفكر في أخذها إلى الحفل حتى تبصر كيف يعيش البدو في صهد الشمس قانعين.

يستطرد السارد في لمسة استعطافية ومسحة إنسانية عندما يؤكد أن أولئك البدو " الذين كوت الشمس وجوههم وأرواحهم ليسوا حجارة، ليسوا رملا، ليسوا عبيدا، أو صورا تذكارية عند الحاجة، ليسوا أثاثا لنزهة يقوم بها الكبارلصيد الغزلان، أولئك البدو التعساء هم إخوة لنا، إخوتنا" (بوطاجين، 2016م، صفحة، 54).

وشمس تمنطيط والصحراء ليست مرهوبة دائما، بل هي ساحرة لدرجة الأسر في المساء، وتمسح أثارها القاسية عندما ترسل اشعتها الذهبية في الأفق، وخصوصا عندما يراها السارد من فوق ضريح سيدي ناجم بتمنطيط، فيصف: " الغروب الإحساس بالذوبان في الفراغ اللامتناهي حيث تبدأ الطبيعة في التشكل من جديد ماسحة آثارها السابقة. انهيار كوكب في في فراغ هائل يشل الرؤية" (أعوذ بالله ص 50) والغروب عند السارد ليس للزينة بل للتأمل واستخراج الحكمة والعبرة ، فيقول: " الغروب لا يعرض في الأكشاك للزينة ، إنه معلم كبير يضحك أمام السبورة ليمتحن قدراتك، ليجعلك متناهي الصغر، تلميذا كسولا، تعرف ولا تعرف" (بوطاجين، 2016م، صفحة 50).

هـ.1. واحة النخل: فتنة الواحة الخضراء بتوات تجذب الزائر إليها في صحراء العطش، ولذلك تحركت قريحة السارد فجادت بسرد مشوب بالشعر وفورة الخيال: "على النخيل أن يحدد موعدا للماء، عليه أن يرسل مواله يتجول على أهدابها. عليه أن يستعيد غبطته الماضية، عليه أن يسقط عليها تمره لئلا يأكله الحمقى، وعليه أن يرفرف عمره كاملا من أجلها.. وعلى الرمل أن ينهض. عليه أن يسهر إلى الفجر إن كان يريد أن يغدو زهرا" (بوطاجين، 2016م، صفحة 55).

و.1. ساحة النافورة: وهي ساحة للاحتفال بالماء وتفجره حيث يحدث احتفال كبير يصفها السارد بقوله" حضر رجال العين ونسوتها وصبایاها إلى ساحة النافورة مرتدين أجمل اللباس والحلي الفضية مزهوين بعرس الماء الذي انتظروه أعواما، كما ينتظر عيد ميلاد النخيل الذي أتى في وقته، دون أن يتأخر شعرة واحدة" (بوطاجين، 2016م، صفحة 86).

وتصف هدى –إحدى البطلات– النسوة وهن في ذلك المهرجان وصفا صحراويا بديعا ، فتقول" النسوة حدائق مزهوة بالسعف الطري، الفساتين الملونة على أجسادهن المنهكة وعلى رؤوسهن أوشحة تظلل وجوههن التي لفحهن القيظ وصيرها زيتونا براقا محمولا على أكتاف محنية شبيهة بفواصل مقلوبة" .

أما وجوه العجائز فكانت تعيسة ومتهالكة " تتخللها تجاعيد عميقة أشبه بمطبات قديمة تطل على العظام، كأن محراثا ثلمها مخلفا آثارا متربة يتعذر ردمها أو تنظيفها. لم تكن وجوها حقيقية، بل قطعا من الفحم نحتت عليها أمارات بشرية كئيبة" (بوطاجين، 2016م، صفحة 86).

2.3. الفضاء المغلق:

أ.2.ضريح أسعد: حسب ما صرح لي الروائي السعيد بوطاجين خلال مرافقتي له لزيارة تمنطيط أن ضريح أسعد المذكور في الرواية هو إحالة على ضريح سيدي ناجم بتمنطيط، وهو في نظر السارد بمثابة العودة إلى البدايات والروحانيات العالية والحقيقة الكبرى، ولذلك استدعى بالوصول إليه غار حراء والمسيح عليهما السلام، فيقول: : " وصلت إلى هنا إلى ضريح أسعد. عدت إلى الصفر، إلى بداية البدء. في غار كهذا كان النبي جائعا يطلب دثارا. من غار كهذا أشرقت شمس الإنسان يوما ففتح بوابات البصيرة، أعاد تعريف الإنسان، في قفر كهذا حمل المسيح قلبا معلقا على عصاه" (بوطاجين، 2016م، صفحة 32).

ب.2. القصر العتيق: يمثل القصر العتيق فضاء هندسيا واقعيا بتنمطيط، وهو ما يصطلح عليه القصبة ببابه الخشبي ومدخل الكبير ودكاكينه وأزقته الضيقة ومنازله الطينية وأكواخه ودهاليسه وآباره، كل ذلك رآه الروائي عيانا قبل أن يتبلور في النص السردي، فتحدث بالعلامة الدالة على تلك الفضاءات.

حضر السارد جلسات منها جلسة تناول الطعام وأثنى على جود أهل الصحراء فيقول: " وقبل أن يذهب(إبراهيم) دلنا على غرفة مفروشة بذوق صحراوي ورثه الأحفاد أبا عن جد، قال إن الطعام الموجود على المائدة أعد إكراما لكم لأن سكان العين يحسنون إلى عابر السبيل واليتامى والضيوف والمساكين والموتى والمؤلفات قلوبهم" (بوطاجين، 2016م، صفحة 25).

كما أنه حضر داخل القصر العتيق جلسة شاي داخل غرفة وصف مشهدها بقوله: " حمل إبراهيم الإبريق إلى الأعلى، وبحركة فنان ماهر صبّ الشاي الثالث مشيرا إلى عادة الأجداد، نخب النخيل، النخلة عمتنا نحن سكان العين نعاملها كما نعامل نسلنا" (بوطاجين، 2016م، صفحة21).

ج.2. الإقامة أو الغرفة: حملت علامة الغرفة للسارد شيئا من العزلة والغربة والتأمل والمفارقة بين عالم الصحراء الذي يراه في نهاره وأثناء تجواله، بينما تكشف الغرفة العصرية في فندق القلق والتوتر واستدعاء حزم المشكلات والهموم.

يشير السارد في رواية (أعوذ بالله) إلى ما أحدثه الإسمنت في عذرية الصحراء والفوضى التي شوهت السكينة في الصحراء التي كانت حية في الزمن الماضي، واعتبره بمثابة الجرح في سيمفونية الجمال الصحراوي الرائع المخدوش من طرف القلابقوالأشكونيين والرسميين، يصف في مشهده ساحة صغيرة تحمل باقة رمل مسافرة لكنها : " فصلت عن أمها الصحراء بحائط واق من الإسمنت الذي بدا جرحا في

سيمفونية المسافة الرائعة، المتناغمة مع زيها القديم الذي منحها معنى حافظت عليه منذ صباها" (بوطاجين، 2016م، صفحة 57).

د.2. الصندوق: والصندوق دائما يحمل أسرارا أو كنوزا، بل هو مستودع السر حتى في تحطم الطائرة ، والشاهد الوحيد أحيانا على سبب المأساة، والصندوق الذي يحيل إليه السارد في رواية أعوذ بالله هو صندوق التراث والحكمة، بل وصية تركها الجد لابنه حتى يكبر، ولما كبر جيدا، فتح الصندوق وقرأ ما يوجد في المخطوطة: " على سكان العين بالغا أم قاصرا، رجلا كان أم امرأة، ذكيا أم غبيا، غنيا أم فقيرا، مغتربا أم مقيما أن يطهر لسانه عله يحتاج إليه إن أراد الاحتفاظ به للشهادة.أياكم والظلم." (بوطاجين، 2016م، صفحة 125).

والمخطوطات التواتية تتمركز أساسا في تمنطيط وهي تراث الأجداد وما تركوه من حكمة ورأي حصيف ينفع الأحفاد في حياتهم لأنه حسب ما ورد في الوصية " لقد ترك الأعداء المهزومون لنا أعداء، وعلينا الكشف عنهم واحدا واحدا لتفادي الفتن القادمة التي ستجرح سلطنة بني عريان في كيانها، سيسيل دم كثير ودم الأخطاء لا تمحوه الذاكرة " .

المخطوط يحمل أسرارا وفكا لشفرة العلاقة بين الحاكم والمحكوم: " قال لي المخطوط إن القلابق شتلة أخرى لصقت بسفن الصيد إلى أن استقرت هنا واشتد عودها فاستولت على القصور وأنابيب النفط مشجعة الأعداء والموالين على إبادة العلماء". (بوطاجين، 2016م، صفحة 80).

وبضرب من الحكمة حذر المخطوط الذي كان داخل الصندوق من مسألة الدماء والثأر لأن " الدم يأخذ الدم ليثأر.لا شيء قابل للنسيان ابدا، المأساة تنام لكنها لا تموت لأنها بشرية، تتظاهر بالنسيان .فقط. وعندما تتذكر أنها تأخرت عن الموعد تقفز من فراشها حاملة ضغينة السلالة" (بوطاجين، 2016م، صفحة 125).

وهكذا نجد بوطاجين يذكر العلامات في مشاهده ويقرنها بموقف إنساني متعاطف مع سكان الصحراء، وأحيانا بنقد لاذع للحكام أو السياح أو الأشكونين أو القلابق أو القائد الأعظم أولئك الذين شوهوا نضارة الصحراء وأفقدوها أصالتها و طبيعتها الخلابة وتركوا أهلها في معاناة وبؤس وحرمان.

والباحث في مشاهد السعيد بوطاجين يجد أن هناك توظيفا أكبر للفضاء المفتوح على الفضاء المغلق وهذا أمر طبيعي ، باعتبار أن الفضاء المفتوح هو الكون والطبيعة ، بينما ينحصر الفضاء المغلق غالبا في منجزات الإنسان وبصماته.

الخاتمة

في نهاية هذ البحث أستنتج مايلي:

1)تمنطيط تمثل هوية مكانية عظيمة بما عرف عنها من زخم تاريخي واجتماعي وثقافي وإثني وجغرافي. حيث أنها بلدة ضاربة في القدم تأسست من عهود غابرة وسكنتها أمم وشعوب مختلفة الديانات واللغات والثقافات. وكانت عبر التاريخ محجا ومزارا للعديد من العلماء والرحالة والمؤرخين والتجار، وعرفت ازدهارا ثقافيا وتجاريا ابتداء من القرن التاسع الهجري، واتسمت بالحركية والإنتاج الثقافي والمعرفي، كما شكلت المركز الذي تأتي إليه الفروع من بقية جهات توات.

2) اهتم الروائيون الجزائريون بتمنطيط ووظفوا تاريخها وعمرانها في سرودهم، ولاسيما نازلة يهود توات مع تركيز بعضهم على إدانة إجلاء اليهود منها. وهذه القصية تغذيها الصراعات التاريخية بين المسلمين واليهود والقضية الفلسطينية وحساسية ما يسمى بالعداء ضد السامية، لكن الكثير من الكتاب يستجيب لبعض الدوافع التي توفر منابر الرأي الصادم وهو باب من أبواب در الأموال وبهارج الشهرة خصوصا في الكتابات الموجهة للقارئ بالفرنسية. و أحيانا تلك الكتابات تكون مطية للجوائز والحوافز المرصودة.

3) يتعامل السعيد بوطاجين مع المكان بوصفه علامة دالة دون التعلق بالأسماء الواقعية . ولذلك لم يذكر القصور بأسمائها والأماكن بإحالتها في متداولات سياقاتها الاجتماعية وخطاباتها المكانية، بل يكتفي بالعلامة الدالة عليها، لتصبح القرية أو تمنطيط هي العين، والضريح هو مقام الولي سيدي ناجم، والمخطوطات هي التراث، والرمل هو الصحراء.

4) هيمنة الأماكن المفتوحة على الأماكن المغلقة في المشاهد الصحراوية التي رصدها الدكتور بوطاجين في روايته. وهذا جلي لاتساع الأماكن المفتوحة ومحدودية الأماكن المغلقة؛ لأن الأولى تتأسس على الكوني اللامتناهي، والثانية تتأسس على فعل الإنسان وإمكاناته المحدودة، والأديب عادة يسترعيه الكوني والأبدي وما في خصوصيته الديمومة والتأبيد والأزلية حتى يضمن التداول والشمول والذيوع.

5) ينتمي السعيد بوطاجين إلى تيار الوعي في تصوير المكان ويربطه بالجوانب الفكرية والنفسية للشخصية. فلا يكاد يذكر مشهدا خاصا بالصحراء حتى يشفعه بتلك اللمسة التي تكتشف الحالة النفسية والفكرية التي تطبع صاحبها، وتلك من آثار المنهج السيميائي الذي يزود حامله بحمولة معرفية ينطلق فيها من الإشارة إلى العبارة ومن الملمح الخارجي إلى طوايا النفس.

6) احتوت رواية(أعوذ بالله) جملة من الإحالات المكانية التي تكشف مؤثثات المكان الصحراوي بدءا من الغلاف وصولا إلى الثيمة وانتهاء بالخطاب السردي المتضمن في الرواية، فقد حفلت الرواية بالصحراء ومشاهدها وإناسها وزخمها الثقافي ولاسيما إنسانها الأسمر وعذباته اليومية، كما احتفت الرواية بالعلامات الصحراوية الدالة عليها مثل : العين، الرمل، الضريح، الطين ، القصر، المخطوطات، النخيل، الصحراء..إلخ.

7) المشهد السيميائي في رواية أعوذ بالله اشتمل على بؤرتين: فضاء مفتوح وفضاء مغلق وتعامل معه وفق المنظور السيميائي الذي لا يكتفي بالمكان مفعولا به، بل يشارك كعامل يشتغل في تثوير السرد وصناعة برنامجه وترسيمته.

قائمة المراجع:

1) البوداوي ,م .ب .(..) .*نقل الرواة عمن أبدع قصور توات*) .(.1 ed)م .ع .سماعيلي (.Trans , الجزائر :دار الكلمة.
2) الزاوي ,ا .*آخر يهودي بتمنطيط*) .ع .مزيان(.Trans , .
3) الصديق ,ح .أ .(2003) .*التاريخ الثقافي لإقليم توات* .(.1 ed)الجزائر :مديرية الثقافة لولاية أدرار.
4) الله ,ع .ض .(..) .*تنزروفت بحثا عن الظل* .(.1 ed)وهران :دار القدس العربي.
5) بكري ,ع .(2010) .*النبذة في تاريخ توات وأعلامها* .برج الكيفان -الجزائر :الطباعة العصرية.
6) بوطاجين ,ا2016) .م .*أعوذ بالله* .(.1 ed)الجزائر :منشورات ضفاف والاختلاف.
7) حسيبة ,س .(2008) .*بنية الخطاب القصصي عند السعيد بوطاجين* .(.1 ed)الجزائر :دار المثقف.
8) حليفي ,ش2015) .م .(*هوية العلامات* .(.1 ed)المغرب :دار رؤية.
9) فرج ,ف .م .(1977) .*إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين* .الجزائر : الجزائر.